هبة سمير

والتقينا

رواية

و إلتقينا

رواية

الكتاب : وإلتقينا
المؤلف : هبة سمير
تصميم الغلاف : محمد مجدي
مراجعة لغوية: هبة النجار
رقم الإيداع : 2015\26533
الترقيم الدولي : 8-38- 978-977-6495
***
دار الميدان للنشر و التوزيع
جمهورية مصر العربية
هاتف 0552311408 / 01224245429
Website: www.daralmidan.com
E-mail: almidan@daralmidan.com



و إلتقينا

هي الكلمات والحروف.. تظل تتحدث وتروي عنا، فهي باقية، ونحن راحلون..

أتمنى أن تنال إعجابكم.

هبة سمير

مقدمة

تسافر في هذه الرواية والتي تأخذك إلى حلم عاش في روح وقلب (ليلى) (الأم الحنون).. والتي لطالما غرست في أبنائها معنى آخر للحياة.

احتضنتهم بشدة؛ فقد كانت تهرب من ذلك الشبح الذي تخشاه على فلذات كبدها، متوعدة وحالمة بأن يأتي اليوم الذي تسترد فيه حلمها، وقلبها، وكل شيء.

(1)

جولة في بيت العائلة

في تلك الغرفة المظلمة، وعلى تلك الأريكة، كانت (ليلى) جالسة وبيديها ذلك الصندوق الذي يحوي الكثير.

غارقة هي في التفكير، وللحظات خانتها دموعها التي سالت كالنهر على وجنتيها. وها هو (علي) يتقلب في فراشه، وقد هرب النوم من عينيه، وها هو ينتفض من فراشه الدافئ، ويتجول في أنحاء البيت كأنه يداعب أحلامه، ويتوه في ذكرَياته، وللحظات يلمح ذلك الضوء الخافت في حجرة المكتب، يتبعه، ويسترق النظر من بعيد، ليجد (ليلى) والدته تسبح في التفكير كعادتها.

يقترب من الغرفة، ويسرع بتقبيل رأسها، ومداعبتها قائلًا:

ـ "ما بال النوم قد هرب من عيون (ليلتي)؟ أخبريني؟"

تمسح دموعها، وتنهض قائمة.

يربت على كتفها، ويمسك بيديها حتى غرفتها وابتسامته تعلو وجهه قائلًا:

ـ "لترتاحي قليلًا يا أماه، فغدًا لدينا الكثير والكثير"

تمر الليلة بكل ما فيها من غموض، وصرخات مكتومة في قلب (ليلى).

ما أوجع الذكريات حين تمس القلب والروح! وما أقسى طيفًا يداعبنا، ولا نملك أن نعيده حقيقة مرة أخرى!

يأتي الصباح، وتشرق الشمس، وكالعادة يخترق شعاعها الذهبي غرفة تلك الفتاة الحالمة المحبة للحياة (ريم).

تنهض (ريم) مسرعة حتى تغلق النافذة وهي تتمتم:
- "أووووووووه! ألم أغلقه أمس!؟ آآآآه! من تلك الأشباح التي تسكن غرفتي!؟"

وفي طريقها للعودة إلى فراشها مرة أخرى، يوقفها صوت والدتها بالخارج وهي تنادي:

- "(ريم)!! (ريم)!! هيا لتكملي إعداد الإفطار لنا ولإخوتك"
تضحك (ريم) ضحكة ساخرة:

- "لقد سمعت كلمة (الإفطار)، وأنا جوعانة.. أتمنى أن يكون ساخنًا ولذيذًا كجميع طعامك يا أمي"

تضحك أمها قائلة:

- "لن يغلبك أحد.. هيا.. سأحضره بسرعة"

تجتمع العائلة في الإفطار، فقد تصادف أنهم جميعًا في عطلة ذلك اليوم. جلست (ليلى) على الكرسي المفضل، كأنها الملكة المتوجة، وابنها (علي) إلى جوارها، و(ريم) تحث الخطى حتى لا يفوتها الفطور اللذيذ، وقد أغمضت عينيها كأنها لا تزال نائمة. وها هي أختها (مريم) التي تشعر بهدوئها ورقتها. وهذا هو آخر العنقود (عمر)، أو المشاغب الذى يهوى اكتشاف الأشياء،

وغرفته ممتلئة إما بفتات جهاز أو ذلك الهاتف الذي قد يبدو عليه أنه انتحر، وانتشرت أجزاؤه الدقيقة في الغرفة.

حقًا لم تكذب (ريم) في وصفها لـ(عمر).

وهناك ذلك الكرسي المقابل لكرسي (ليلى)، والذي تتعمد أن تبقيه فارغًا وفاء لذكرى زوجها الحبيب (إبراهيم). تتناول الأسرة الإفطار، ويتبادلون أطراف الحديث.

ينهض (علي) واقفًا، ويستأذن والدته، ويقبل يديها ويمضي، فقد أخبرهم أن لديه زيارة لأحد أصدقائه، فلديه مناسبة عرس.

يحث (علي) الخطى مسرعًا في طريقه إلى (بلال)، ذلك الشاب الخلوق الرائع الذي يحبه (علي) كثيرًا.

يدق باب الجرس في بيت (بلال)، فيفتح (أسامة) أخوه الصغير، ويتعلق بـ(علي) قائلًا:

- "لماذا تأخرت!؟ اختر لنفسك عقابًا من اثنين: تأكل طعام سارة اللاذع، أم أعد لك عصير التفاح بالليمون؟؟"

تعلو ضحكات (علي):

- "يا بطل.. ها أنت قد اعترفت أن عصيرك الذي تعده عقابًا كافيا.. سأذهب مع (بلال) فى نزهة من نزهاته المعتادة، وهذا يكفي، فنزهات أخيك دائمًا ما تنتهي بكارثة، لكن ماذا أفعل!؟ أخوك قدري وجنونه يبعث في داخلي حنينًا لكل شيء جميل"

تلمع عيون (أسامة)، فهو حقًا لا يعي ماذا يعني (علي).

ـ "هيا يا (أسامة)! اذهب وأخبر (بلال) ألا يتأخر أكثر من ذلك"

يأتي (بلال)، ويحتضن (علي) قائلًا:

ـ "يا مرحبًا بالبطل الهمام، ماذا فعلت بعد تلك النزهة التى أسلبتك قواك يا رجل؟ يبدو أن الأطفال مثلك لا يقوون"

وتعالت ضحكاته.

يبادره (علي) قائلًا:

ـ "دعك من هذه الطفوليات... ألا تدري أن لدينا موعدًا هامًا اليوم!؟ هيا أسرع لكي نحضر الحفل من بدايته"

يسرعان الخطى ليصلا إلى ذلك الفندق الفاخر الذى تزينه الأنوار، وتضج به الموسيقى، وكالعادة تلمع عيون (بلال)، ويمسك بيد (علي) قائلًا:

ـ "هيا إلى قصر (علي بابا)"

يهتف (علي) في أذن (بلال) الذي قد اندمج مع الموسيقى والحضور قائلًا:

ـ "هيا لنلقي التحية على (يوسف) ونسرع"

ويخاطب (بلال) قائلًا:

ـ "أنت تعي جيدًا أني لا أحب ذلك النوع من الحفلات، كما أن الرقص والموسيقى الصاخبة لا يستهويانني"

فيرد (بلال) قائلًا:

ـ "أي نعم يا شيخنا الفاضل، سنرحل عما قريب، ونفرق دمنا بين القبائل، فلنحطم الأصنام، ولـ.... ولـ....."

ينظر إليه (علي) بعتاب:

ـ "آه منك! لن أسلم من لسانك أبدًا"

يصعدان إلى الحفل، ويهنئان (يوسف) بحفل زفافه، ثم يسرعان بالخروج كما اتفقا، لكن (يوسف) يشير إليهما أن يستمرا لبعض الوقت، فيلبيان رغبته، ويتبادلان أطراف الحديث.

يحضر (بلال) لـ(علي) قطعة من الحلوى الفاخرة قائلًا له:

ـ "سيدى الفاضل.. هل تسمح لي بهذه الرقصة!؟"

ينفجر (علي) ضاحكًا قائلًا له:

ـ "لا يا سيدتي، فأنا لا أفضل التراقص مع أمثالك"

يتساءل (بلال):

ـ "يا (علي)! تمر الأيام بسرعة.. هل ستظل نتقن دورنا كضيوف لحفلات الزفاف؟ متى ستكون نجم الحفل يا صديقي!؟ ألن

أفرح بك قريبا!؟ ألن تنوي يا بطل أن تكمل نصف دينك؟ أم ماذا!؟"

ثم يكمل قائلًا:

ـ "لكن... من هذه الأميرة التى ستكسب قلب الفارس المغوار؟"

تظهر علامات الحزن على وجه (علي)، ويكتفي بالصمت، ويحاول تغيير الموضوع.

ينتهي الحفل، ويودع (علي) (بلال)، حيث سيذهب (بلال) إلى خاله الذي يعيش وحيدًا بعد أن توفيت زوجته في حادث أليم، ولم يرزق بأطفال. بينما يسرع (علي) إلى مكانه المفضل.. ذلك المسجد الكائن في ذلك الحي الفرنسي الهادىء البسيط، والذي يحيا فيه أجمل لحظات حياته من الطمأنينة والسكينة التي تتغشاه، عندما يضع قدميه على الأرض يشعر بأن هموم الأرض قد ذابت، وأن قلبه أصبح وليدًا في هذا المكان، ولديه أيضًا صديقه الصغير (عبد الله) الذي يحفظ القرآن، ويقرأه على مسامعه أيضًا في براءة، وطهر، وإتقان.

الشيخ الجليل إمام المسجد الكائن فى بقعة من النور، والذي كان يسأل عنه دائمًا، ويطمئن على أخباره، ويدعو له.

ها هو الشيخ يرحب بـ(علي) مبتسمًا. يجلس (علي) متأملًا المكان كأنه لم يأتِ منذ زمن، فقد كان فى رحلة عمل تابعة للشركة التي يعمل بها، كان ينظر بعيونه لكل ركن من أركان

المسجد كأنه يحتضنه بعيونه. يرتوي منه ما يُذهب ظمأه. يسقط عن كاهله متاعب الحياة وآلامها وأوجاعها.

وهذا (عبد الله) يدخل المسجد، فتتلاقى عيونهما. يحتضن (علي) بشدة، وينظر (علي) إليه قائلًا:

ـ "لقد كبرت يا بني، أشعر كأني تركتك منذ سنين" يبتسم (عبد الله)، ويخرج من جيبه ميدالية قد نقش عليها اسم (علي)، وقلباَ أحمر من ورق، ويخبره أنه صنعهما خصيصا له.

ابتسم (علي)، وتهللت أساريره، وتنهد قائلًا:

ـ "الزمن حقًّا يمر، الصغير سيكبر، والكبير سيزداد عمراَ"
في طريق العودة إلى المنزل أمطرت السماء، وبلل المطر وجه (علي)، وأيقظ فيه تلك الذكريات التي تأتيه بين آونة وأخرى.

2014-6-24

(2)

مطر يبلل قلبي

نعم، في طريق العودة إلى المنزل أمطرت السماء، وبلل المطر وجه (علي)، وأيقظ فيه تلك الذكريات التي تأتيه بين آونة وأخرى، وتلك الطفولة الزاخرة بالأحداث، وذلك المنزل الواسع، وتلك الحديقة الكبيرة التي كانت تحيط به، وذلك المطر الذي كان يفجر فيه كل شيء، وتلك الطفلة الصغيرة البريئة التي كانت تقاسمه اللعب، وتقاسمه الأحلام، الطريق إلى حلقة القرآن.. وتقاسمه كل شيء.

وتقاسمه تلك الهواية في انتظار الغروب على ذلك السطح العالي، وبمشاعر الطفولة وبراءتها كان (علي) يستقبل المطر، ويغمض عينيه بشدة ممسكًا بيدها، ويتمنيان كل شيء يريدانه، كما تعلما من الكبار أن الدعوات فى المطر مستجابة.

كانا يعتقدان بأن أبواب السماء تفتح، وتستقبل أمنياتهما، وترسلها إليهما مرة أخرى على هيئة قطرات المطر. يالها من براءة! وياله من خيال يذيب النفس راحة وطمأنينة!

لم تكن تلك الفتاة سوى حلم (علي) الصغير الذي نما في قلبه الطاهر الذي لم يعرف سوى الأمل وحب الحياة، وأخذ يرن فى أذنيه ذلك الصوت الملائكي حينما يهطل المطر، حيث يصطفون تحت المطر، ويرفعون أياديهم، ويلعبون كثيرا، ويتمنون.. ويتمنون.

فهم على يقين الطفولة بأن السماء سترسل لهم أمانيهم وأحلامهم على هيئة سيول المياه. لتزداد فرحتهم. وحينما تكف السماء عن مطرها يتسابقون فى النظر إلى تلك الألوان في

السماء.. قوس قزح.. حينها تشير بيديها لـ(علي) والبسمة تملأ عينيها العسليتين:

ـ "وهذا ما تمنيته.. قصر في السماء معك يا (علي)" يبتسم، ويكملان اللعب مع باقي أصدقائهما.

تتساقط قطرات المطر، وتتساقط معها دموع (علي) الكبير رغمًا عنه، وهو يسير في شوارع مرسيليا، وترن في أذنيه كلماتها رغم كل تلك السنوات من الغربة، الفراق، التيه.

ويتعالى صوته:

ـ "أريد ذلك القصر العالي في السماء، لكن أريده معك.. معك.. معك.. أنتِ فقط"

يزداد بكاء (علي)، وربما لا يدري أحد حينما يبكي الرجال، ياله من وجع قاسٍ ذلك الذي يبكيك يا (علي)!

ربما لن يتفهمه أحد، ربما لن يشعر به أحد.

ينظر (علي) للسماء قائلًا:

ـ "لماذا الغياب!؟؟ لماذا الفراق!؟ أنا بدونك لاشيء" يسرع (علي) مهرولًا، ليعود إلى بيته هربًا من ذكرياته.

يفتح (علي) الباب، ليجد (ريم) خلف الباب تتبادل النكات مع (عمر).

يداعبها وعلى وجهه علامات الحزن، فتضاحكه قائلة:

ـ "يا بطلنا الهمام أغرت من حفل زفاف صديقك!؟ فلنفرح بك قريبا، وتودع أيام الحرية يا (علي)"

يبتسم ابتسامة خفيفة، ويدخل إلى غرفته، ويسائل نفسه:

ـ "مال طيفها لا يفارقني!؟ ألم تمر كل تلك السنوات! ألم تذهب هناك؟ ألم تُقتَل، ويقتل معها الحلم والأمان؟ أما آن لي أن أفيق من كل هذا!؟"

يتوضأ (علي)، ويصلي حتى يسترد روحه مرة أخرى، وما إن أتم الصلاة حتى ذهب إلى فراشه، واستغرق فى النوم بعد يوم شاق.

يرن الهاتف فى أرجاء المنزل وترد (ليلى)، يبدو أن أحدًا ما يريد (علي)، تنادي عليه، فيأتي، فإذا باتصال يخص العمل. لقد رشح (علي) للبعثة في إحدى المواقع التابعة للشركة، حيث يعمل (علي) مهندسا، وقد ساعده حصوله على الجنسية الفرنسية أن يترقى كثيراً في عمله رغم أنه حديث السن لا يزال صغيراً.

ودع (علي) أمه، وحمل حقيبته، واستقل سيارة العمل مسرعًا، وعمل بنشاط كعادته، وتبادل الحديث مع فريق العمل، ونال كالعادة إعجاب الجميع بسرعة بديهته، وذكائه، وحسن معاملته.

ارتدى (علي) معطفًا، وذهب إلى الشاطئ في نهاية اليوم بعد نهاية يوم عمل شاق، حيث كانت تلك البلدة تطل على الشاطئ. جلس أمام الشاطىء مباشرة حيث شعاع الشمس

الذهبي يختفي شيئًا فشيئًا، ولمعان المياه في انعكاس رائع، وهواء يلامس وجع (علي)، ويداعبه في أرجاء المكان.

نسمات الهواء كانت كأنها تعزف مقطوعة موسيقية أمام ذلك المنظر الخلاب.

من شدة التعب غفت عيناه، فإذا بذلك الطيف يزوره في منامه، ويحلم بذلك الحلم الذي لطالما أنقذه من نومه.

حقًا من يعرف (علي) جيدًا يلحظ بأنه رغم مرحه وابتسامته التي لا تفارق وجهه، يصمت أحيانًا، وتشرد عيناه.

تمر الليالي بكل ما فيها، وينهمك (علي) في العمل كل يوم، ومن شدة التعب ينام أحيانًا على الشاطئ، أو على أريكة الاستقبال في الفندق، ولا ينبهه سوى صوت من يوقظه كل يوم، وهكذا انتهت المدة، وانتهى المشروع بنجاح باهر، ونتيجة نالت إعجاب الرؤساء والعاملين بالشركة.

وهنا يعود (علي) مشتاقًا إلى بيته.. حضنه الدافئ.. وإلى أمه، وإلى إخوته، وإلى المسجد، وإلى (بلال)، وإلى كل شيء.

يسرع (علي) إلى البيت، ويدخل يقبل يد أمه، وتحتضنه بشدة؛ فهو لا يشعر بالأمان إلا بين أحضانها. تقبل جبينه، وتبتسم قائلة:

- "حمدًا لله على سلامتك"

لقد أنار البيت والدنيا من جديد، وكالعادة يأتي (عمر) تتبعه (ريم)، وبنظرة تفحص لما فى يد (علي) يهتفان:

ـ "أنرت البيت"

وفي نفس اللحظة يصيحان:

ـ "أين الهدايا يا بطل!؟ كل هذه الغيبة ولاشيء!؟"

يبتسم (علي) قائلًا:

ـ "أيعقل يا ثنائي المكر!؟ لقد أحضرت لكما الهدايا بالطبع"

يفتح الباب، فإذا بـ(مريم) التي كانت في الخارج تدخل المنزل، تسرع نحو (علي) قائلة:

ـ "لقد اشتقت إليك يا أخي، لا تتركنا مرة أخرى، فكم نتأذى بدون وجودك معنا!"

يبتسم قائلًا:

ـ "يا رب يدوم رضاك يا قمري يا (مريومتي)" وبمكر يقول لها:

ـ "أرجو ألا تتغير فكرتك، وتملي مني كالعادة يا صديقتي المفضلة"

يذهب (علي) لكي يبدل ملابسه في غرفته، وإذا به يسمع صراخ (عمر) ووالدته، يسرع (علي) إلى الخارج، فإذا به يجد (مريم) ملقاة على الأرض، والدماء تسيل منها، يبدو أن (عمر) و(ريم)

كانا يلعبان، واصطدمت (ريم) بالنافذة المفتوحة، فوقعت الأطباق الزجاجية فوق (مريم) أثناء تنظيفها لها.

أمسك (علي) (مريم)، وحملها بين يديه، وبجواره أمه و(عمر) و(ريم)، وأسرعوا جميعهم إلى الخارج، وبعد مدة قليلة من الزمن وصلوا المشفى الذي يوجد في بداية التقاطع، وهرولوا إلى الداخل وأنهى الطبيب الإسعافات الأولية، لكنه أخبر (علي) أنه لابد من الذهاب إلى مستشفى كبير حيث أن هناك جروح قطعية بالرأس، وخصوصًا أن (مريم) فقدت الوعي، فلابد من الاطمئنان عليها.

يسرع (علي) وإخوته، و(مريم) بين أياديهم، ويستقلون سيارة (بلال) الذي حدثه (علي) بمجرد وصوله المستشفى.

تجولوا في شوارع مرسيليا، حتى وصلوا إلى ذلك المستشفى الكبير، وهناك ينهون إجراءات الدخول، ويبدأ الطبيب بالفحص، وكل من كانوا في المستشفى ينظرون بغرابة إلى (ليلى) والدة (علي)، وإلى (مريم) حيث يزينها ذلك الحجاب الهادئ، والذي لم يعتادوا أن يروه.

نظرات من بالمستشفى تتفحصهم، ولسان حالهم يقول: "من هؤلاء!؟ ما هذه الكائنات الغريبة!؟ من أين أتوا!؟"

ويرتبط في أذهانهم ذلك الفكر السائد في هذه العصور عن همجية ورجعية هؤلاء، وتلك الصورة التي رسمت في عقولهم، بل وطبعت.

لم يلحظ (علي) وأسرته ذلك سوى في اليوم التالي، وقد تأذوا كثيراً من تلك المعاملة التي قد أثرت عليهم، فقرر (علي) أن تنتقل أخته (مريم) للعلاج في مستشفى آخر.

اتصل (علي) بـ(بلال) صديقه، وأخبره بالوضع، وتولى (بلال) البحث عن أطباء يعرفهم في مستشفى قريب، حتى يألف أهل (علي) جو المستشفى.

وفي هذه الأثناء وبعد طول بحث وعناء وجدوا مستشفى قريبة تعمل بها إحدى الطبيبات، والتى تربطها بـ(سارة) أخت (بلال) صداقة قوية، وقد تحدثت إليها (سارة)، وطمأنت (بلال) أن (مريم) وعائلتها سوف يرتاحون كثيراً في هذا المستشفى، وها هو (علي) يخبر والدته وإخوته بهذا القرار، ويستعد الجميع لمغادرة المستشفى.

#1رمضان 1435هـ 29-6-2014م

(3)

حينما تتلاقى العيون

ارتاح (علي) كثيراً بعدما وجد (بلال) ذلك المستشفى، والتي تعمل بها صديقة (سارة). واطمأن (علي) بعد أن ضاق بحثًا عن مستشفى قريب، وفي هذه الأثناء ذهب (بلال) إلى المستشفى، اقترب من الغرفة التي يوجد بها (علي) وعائلته، طرق الباب، فلم يجب أحد، فأعاد الطرق مرة أخرى، ودخل إلى الداخل، وبعفويته المعتادة فجأة وقعت عيناه على (مريم)، تلك الهادئة التي لم يرها في حياته، ولا يعرف عنها شيئًا، فلم يكن (علي) صديقه الصدوق معتادًا أن يتحدث عن عائلته كثيرا، وخصوصا إخوته البنات. استرجع (بلال) ذاكرته، وخرج مسرعًا؛ فلم يكن بالغرفة سوى إحدى الممرضات، والتي كانت تقوم بتركيب إحدى أجهزة المحاليل. تجول (بلال) في أرجاء المستشفى بحثًا عن (علي)، فلم يجده، وأخيرا وجده، فذهب متلهفًا قائلًا له:

ـ "أين كنت!؟"

فأجابه (علي):

ـ "كنت أنهي بعض التعاملات النقدية مع إدارة المستشفى"

فبادره (بلال) قائلًا:

ـ "وأين عمر؟ ووالدتك؟ وريم؟"

فأجابه (علي) أنهم ذهبوا إلى البيت لإحضار بعض ما يلزمهم، فأخبره (بلال) بأنه قد ذهب إلى المستشفى التي حدثه عنها، وأنهم يستطيعون الانتقال حينما يريدون ويرغبون.

تهلل وجه (علي) قائلًا:

ـ "الحمد لله.. لا أستطيع أن أصف لك الهم الثقيل، والمعاملة السيئة التي تلقيناها هنا!"

بادره (بلال) بضحكاته المعتادة:

ـ "تفرقة عنصرية يا بطل"

يعود (بلال) إلى بيتِه، ويستلقي على سريره بملابس الخروج؛ فقد كان منهكًا كثيرا.

وما إن تسلل النوم إلى عينيه، حتى وجد تلك الجميلة النائمة تتسلل هيِ الأخرى إلى قلبه. وحينما أذن الفجر، استيقظ (بلال) مؤنبا نفسه.

قام ليتوضأ ويصلي الفجر، وعلى سجادته أخذ يؤنب نفسه:

ـ "كيف لي أن أسمح لهذا الطيف أن يتخلل فكري!؟ إنها أخت (علي) توأم روحي ورفيق دربي... آه! نظرة عابرة تفعل بي كل هذا!؟ يارب!"

وعلى الجانب الآخر استقل (علي) السيارة، وبها (مريم) و(عمر) و(ريم) ووالدته، وقد وصلوا ذلك المستشفى الذي قد حدثهم (بلال) عنه، وحينما وصلوا هناك وجدوا تلك الفتاة التي كانت على علم بموعدهم، حيث أخبرتها صديقتها (سارة) مسبقًا به.

بالطبع لم ينظر إليها، فتلك طبيعته، لكنهم جميعًا بادلوها ابتسامة دافئة ودودة، وشعروا أن هناك ما يجمعهم بها، فهي وحدها من يزينها ذلك الحجاب الزاهي، وعيناها تتلألآن كالبدر في ليلة تمامه. رافقتهم إلى الغرفة المخصصة، وأنهت بنفسها كل الإجراءات، وربتت على كتف (مريم) قائلة:

ـ "بطلتنا الهمامة.. ستكونين بخير"

تهللت (مريم) بوجهها الملائكي.

مضى الأسبوع الأول، وكل يوم يأتي (علي) لزيارة أخته، والاطمئنان عليها مع العائلة، وبحوزته بعض ما يلزمهم من أشياء، وفي كل مرة تثني أمه على تلك الفتاة المهذبة والطبيبة الماهرة، والتى تتفانى في الاهتمام بـ(مريم) التي أحبتها كثيراً، واقتربا أكثر وأكثر من بعضهما البعض. لم تحبها (مريم) فقط، بل أحبوها جميعًا.

لم تكن ودودة فحسب، بل كانت أيضًا ماهرة بالطب رغم صغر سنها، ودقيقة في عملها أيضًا.

غادرت (حنين) المستشفى عائدة إلى البيت مسرعة، حيث هي اليوم على موعد مع (سارة) صديقتها المقربة. كانت مسرعة جدًا؛ فقد تأخرت كثيرا، لأنها كالعادة انهمكت في العمل، ولم تغادر المستشفى حتى تطمئن على حال جميع المرضى الذين تتابعهم، تواسي هذه، وتربت على كتف هذه.. نسمة هي، وبلسم للروح.. تواسي الجراح، وتخفف الآلام.

في طريقها للعودة كانت لابد أن تمر على محل الحلوى، لتشتري الحلوى اللذيذة لـ(سارة)، فهي تعلم أنها تعشقها، ولابد أيضًا أن تقف عند الحديقة، لكي تقطف الزهور، والتي تعلم جيدًا أن (سارة) لن تسمح لها بالخروج معها إلا بباقة من الزهور.

وصلت (حنين) أخيراً إلى البيت، وبرشاقة صعدت درجات السلم، وقفت أمام باب البيت، وأخذت تدق الباب بخفة رغم أن لديها مفتاحاً، وعندما فتحت والدتها الباب طبعت (حنين) قبلة على وجنتيها ورأسها.

- "اشتقت لك يا (فاطمتي) كثيراً"

ثم دخلت مسرعة كالطفلة إلى المطبخ، لكي تلتقط قطعة دجاج محمرة من الإناء. وهنا صاحت والدتها:

- "آه من تلك الطفلة وتلك البراءة! لن تكبري أبدًا، ستظلين طفلة"

ثم فتحت باب الثلاجة لتجد الحلوى اللذيذة، التقطتها أيضًا، وأعدت كوباً من الشاي بالحليب، وجلست على الأريكة التي توجد مقابل شرفة تطل على حديقة صغيرة، كان عليها أن تنتبه، فموعد (سارة) قد اقترب جدًا.

اعتذرت لوالدتها أنها لن تستطيع أن تكمل غداءها، فلديها موعد هام، ووعدتها أن يتناولا العشاء سوياً.

خرجت من المنزل، وكالعادة فضلت أن تسير بعضًا من الوقت، حتى تصل إلى ذلك المكان المحبب لديهما، وهي حديقة قريبة بها العديد من المناظر الخلابة. وهنا ظهرت (سارة)، وبنظرة عتاب قالت لها:

ـ "ما كل هذه الدقائق يا سيادة الطبيبة!؟ لقد تأخرتِ كثيراً، أكان يجب علي أن آخذ موعدًا من سيادتكم قبل شهر مثلًا!؟"

ابتسمت (حنين)، وفاجأتها بباقة الورود تلك. حقًّا تلك الورود هي الرسائل التي لا نستطيع ردها، فهي تلمس الروح بنقائها، وقطرات الندى التي تبللها، وكما يقولون دائمًا:

"الورود رسول الحب، رسول العشق، رسول الصداقة؛ فحينما ترى الورد تشعر بالرقة والحب يسودان المكان"

ابتسمت (سارة) أخيراَ ، وكالطفلة التقطت الورود، وأخذت تمررها على وجهها كطفل يتلاعب بلعبة هدية من والديه.

اختارتا أيضًا المكان المفضل لديهما، وجلستا تتحدثان طويلًا. أخذت (حنين) تروى لـ(سارة) يومياتها في المستشفى، وتشكو لها من العديد من المواقف التي أرهقتها، وتروي لها أخرى أسعدتها كثيراً.

تساءلت (سارة) عن أخبار (مريم)، طمأنتها (حنين)، وروت لها كم أحبتْ عائلة (مريم) كثيرا، وأخذت تثني على أخلاقهم، ومعاملتهم الطيبة، وروحهم الجميلة، كما روت لها أنها أحبت (ريم) و(مريم) كثيراً.

أخذت تنظر (سارة) لـ(حنين) كثيراً قائلة لها:

- "إن روح الطفولة لن تترك قلبك أبدًا، ستظلين طفلة يا صغيرتي.. مهما حييتِ، ومهما كبرتِ"

وفجأة، أمطرت السماء بغزارة، حينها دخلت الاثنتان المبنى من الداخل، لكي تحتميا من غزارة المطر، وهنا وجدت (سارة) (حنين) قد ذهبت بعينيها بعيدًا، تركتها، وذهبت تقف تحت المطر.

جذبتها (سارة)

- "هل جننتِ يا حنين!؟ ألم أقل لك طفلة؟ ماذا تفعلين يا طبيبتنا الماهرة؟ أتريدين أن تمرضي، ولا أراك المرات القادمة، وأزورك فى المستشفى بطبق من الحلوى!؟"

لكنَ (حنين) كانت في مكان آخر بذاكرتها، كانت تائهة، وهنا ضربت كفها (سارة).

- "ما هذا!؟ هل أحادث نفسي!؟ أين ذهبتِ يا طفلتي؟"

ردت (حنين) بنبرة حزينة:

- "تداعبني ذكريات الطفولة، والتي لا أتذكر سواها.. البيت والأهل وأبي -رحمة الله عليه- و(علي) ابن خالي (إبراهيم).. لا أدري أين ذهب، وكيف هو.. أحي هو أم ميت؟ كم كنا نلعب سويا عند المطر! وكم!..... وكم!......"

بادرتها (سارة):

- "ألم تحك لنا والدتك أنهم رحلوا عن الحياة في قصف المخيم منذ سنوات كثيرة!؟ فلتدعي لهم بالرحمة"

بكت (حنين):

- "قلبي يقول لي لا.. قلبي يخبرني أنهم هنا.. أنهم أحياء"

بادرتها (سارة):

- "لقد كنت طفلة يا حنين، ومن المؤكد أن والدتك تتذكر الأحداث جيدًا، حبيبتي لا تدعي الأوهام تلعب برأسك"

قالت (حنين):

- "لقد اعتدنا أن يكون إحساسنا هو الأقوى، وهو الذي يمدنا بالحياة، به نشعر بمن يحبوننا ومن يكيدون لنا، هكذا علمتنا الغربة التي عشناها في بلادنا، وسنوات القهر والوجع. لقد كنا أنا وأخي (أحمد) صغاراً، لكننا صرنا كباراً بما يكفي لكي نفرق جيدًا بين من باعوا أوطاننا، ومن باعوا أرواحهم فداء لها"

بدت ملامح (سارة) المتأثرة تغلب عليها:

- "آه! لقد كبرت الطفلة! أبداخلك كل هذا!؟ آه من غربة الوطن!"

قالت لها (حنين):

ـ "علمتني الحياة أن أتناسى كل ألم إلا ألم الوطن، وفراق ترابه، هكذا علمتني أمي، وهكذا رباني أبي، لقد كنت لا أنام؛ حتى أدرس، وألتحق بكلية الطب، كانت أمنيتي الأولى أن أداوي الجرحى، لقد سئمت أن أقوم بدور العاجز، حينما أرى من أحب يتألمون، وأقف عاجزة، لا أقوى على شيء.. لقد سهرت الليالي حتى أتفوق، وأفهم كل شيء أدرسه.. آه من الليالي! آه من الليالي!"

أرادت (سارة) أن تخرج (حنين) من ذلك الجو الذي بدا كئيباً حقًّا قائلة لها:

ـ "وماذا عن الحلوى!؟ أقصد الغداء.. لقد أحضرت لك ما تحبين"

وهنا ابتسمت (حنين):

ـ " يبدو أنني سأتناول الغداء للمرة الثالثة!"

وهنا طلبت (سارة) من (حنين) أن تحدثها في موضوع يخصها، فلقد طلب مدير العمل منها أن تتحدث إلى (حنين)، فقد رآها في المستشفى أكثر من مرة، وهو معجب بجمالها جدًا، وأخبرتها أنها سألته لماذا (حنين) بالذات!؟ فأخبرها بأنها مختلفة عن كل الفتيات اللاتي يعرفهن.

وعدته (سارة) أن تفاتح (حنين)، قصت (سارة) لها القصة كاملة، ولكنها لم تجد منها رد الفعل الذي تنتظره، حيث كانت

تتوقع أنها ستطير فرحًا بذلك الثري الذي تتهافت عليه فتيات فرنسا، ويتمنون منه مجرد كلمة.

"ألم تراودك قصص فارس الأحلام!؟ ألم تسعدي باهتمام رجل مثله بك!؟ ألن تطيري حتى تعانقي السحاب من خبر كهذا!!؟"

هكذا تساءلت (سارة) في ذهول.

لكن (حنين) لم يخدعها إحساسها يومًا؛ فهي قدرية من الدرجة الأولى، تسير نحو أقدارها بهدوء وثبات، وبداخلها يقين بحلم يراودها، تخفيه عن الجميع، لكنها الطموحة ذات الإرادة الحديدية، والتي توقن يومًا أنها سترى أمنياتها حقيقة، لكنها تتقن الصبر الجميل، وتتفنن في تربية النفس، تؤمن حقًا أننا لم نولد لنحيا حياة عادية، ثم نموت ولم نغير شيئًا، ولم نحيا مثل ما أراد الله لنا.

لم تكن (حنين) فتاة تقليدية، بل كانت مزيجًا يصعب خلطه في شخصية واحدة.

كانت عميقة لدرجة كبيرة، ملامحها ومرحها يجعلك تعاملها كطفلة بريئة، وهي أيضًا تحمل بداخلها روح سيدة عايشت الأحداث، وألمّت بالنوازل، وعلى دراية بمدارك الحياة، وطرقها يزينها ذلك السمت الديني الذي زرعته فيها والدتها، ووالدها يزجرها عند الخطر، ويوجهها في كل أمور الحياة.

لم تنسَ (حنين) تلك الأنثى التي بداخلها، لكنها تخبئ كل هذه المشاعر، ولن تبوح بها إلا لمن يستحقها فقط.

لم تأخذ كلمات (سارة) عن ذلك المدير الوسيم الذي لديه من المال ما يكفي لكي تحيا (حنين) ملكة متوجة على عرش الأميرات.

ليست هذه هي مفاتيح (حنين)، لا لم تبهرها الثروة والمظاهر، لكنها تتمتع حقًا بالإحساس الصادق؛ فهي حقًا لم تشعر بتغير في نبضات قلبها، ولم يتدفق إحساس الفرحة بداخل روحها، حينما تحدثت (سارة) عن ذلك الشاب الذي يرتاد النوادي الفخمة، ولديه من الصديقات الكثير والكثير. هكذا كانت حياته، لم تكن (حنين) تريد ذلك. هي لا تريد أن تكون مع رجل كهذا، هي تريد من تكون هي على عرش قلبه متربعة. هكذا تمنته فارسا لأحلامها، ولم تيأس يومًا أن تلقاه.

ودعت (حنين) (سارة)، وتركتها لتذهب لوالدتها، حتى تتناول العشاء معها كما وعدتها.

وعلى الجانب الآخر ذهب (علي) للاطمئنان على (مريم) وعائلته في المستشفى. مضت الليلة بكل ما فيها، والكل بشوق ينتظر أقدارًا كتبت في لوح محفوظ، تصادف وجود (علي) ودخول (حنين). قفزت (ريم)من مكانها قائلة:

- "أيتها الساحرة الجميلة والطبيبة الماهرة.. هلا أزحت الستار وأخبرتينا عن اسمك؛ فلقد مللت مناداتك بكل هذه الألقاب"

ضحكت فتاتنا، وضحكوا جميعًا، ولأول مرة يستمع (علي) لذلك الصوت الشجي:

"(حنين).. اسمي (حنين)"

ترن الكلمات في أذن (علي)، وحينها يرفع عيناه لينظر إليها، ولأول مرة يتلعثم لسانه، ويخفق قلبه بشدة، ويستأذن مسرعًا في الخروج. وتكمل (ريم) مبادلتهم الضحكات، وتضفي جواً من المرح داخل الغرفة.

يسرع (علي) إلى خارج المستشفى، لكنه شارد الذهن يخاطب نفسه:

- "يا الله! يا (حنين) يا رفيقة الطفولة، تلك الفتاة تشبهك كثيراً، لا ليس فقط، بل وتحمل اسمك، ونبرة صوتك التي غابت عني.. يا الله!!! لماذا جاءت هنا!؟ هل لتذكرني بك!؟ أم لتحيي بداخلي ذكريات لم تمت من الأساس؟ آه! آه! آه!"

7رمضان 1435

2014-7-5

(4)

لماذا يا أماه؟

تتماثل (مريم) للشفاء بفضل الله، ويزور (بلال) (علي)، لكي يبلغ سلام والدته لأم (علي)، ويعتذر حيث كانت والدته مريضة الفترة السابقة، فلم تستطع الحضور لزيارة (مريم)، يتبادلان أطراف الحديث، ويأتي (عمر) ليداعب (بلال) كعادته. تشكر (ليلى) (بلال) كثيرًا على وقوفه بجانبهم، تخبره حقًّا أنها تشعر أنه ابنها.

تنتهي فترة الإقامة بالمستشفى، وينُهي (علي) إجراءات الخروج، ويبادر الجميع بالمغادرة، ويستقلون سيارة (بلال) لكي يوصلهم إلى المنزل.

يتحاشى (بلال) النظر إلى (مريم)، أو توجيه حديث لها؛ فهو يعلم أنه بدأ ينجذب نحوها، وبدأ قلبه ينبض باسمها، فقد وضعت (مريم) أول بصمة فيه.

لكنه (بلال) الخلوق الواعي جدًا لحدود الصداقة والأخوة والدين.

يسكن فرنسا تلك الدولة الأوروبية الساحرة، لكنه مازال يحمل دينه بين طيات قلبه، وكيف له أن يتخلى عن مبادئ غرست في روحه منذ سنين لأجل أى شيء كان. وها هي (ريم) توجه الحديث لـ(مريم) قائلة:

- "لقد افتقدت طعامك الشهي يا حبيبة معدتي.. آه! آه! أقصد يا حبيبة قلبي.. لتعدّي نفسك.. مشتاقون لتناول الغداء من يديك"

ضحك الجميع، وأكملت (مريم) قائلة:

- "سأصنع لك فطيرة التفاح التي يحبها (عمر) غدًا" تهللت (ريم):

- "كالعادة.. (عمر).. (عمر).. (عمر).. ماذا عن (ريم)؟ أحلامها؟ أمانيها؟ في أن تتذوق الدجاج اللذيذ بالخلطة يا أختي العزيزة؟" يبتسم (بلال)، ويقاطعها:

- "حقًا لقد أصابني الجوع"

وصلوا أخيراً للبيت.. الحضن الدافئ الكبير الذي يحتضنهم، ويمتص شعورهم بالغربة في أحيان كثيرة. وحينما وطأت أقدامهم الأرض شعر كل منهم بأن روحه قد عادت إليه؛ فذلك الحي بالنسبة لهم كحضن الأم يفتقدون الأمان من دونه.

وفي طريق (بلال) للعودة طبع فيه طيف (مريم)، فقد تسللت إليه بهدوئها وحسن خلقها، وأدبها الجم، وحيائها الذي يزينه، فأسر في نفسه شيئًا.

هي الروح حين تحب.. لا تعرف حدودًا، لا تفكر في

شيء، فكل الماديات تندثر، ولا يتبقى سوى صوت الحنين، شيء قوي يجذبك نحو من تحب، لا تدرى له سببا، فالكون كله يصبح بالنسبة لك شخصًا واحدًا.

وصل (بلال) إلى منزله كالعادة، استلقى بملابسه على سريره غارقًا في النوم.

وعلى الجانب الآخر استقرت عائلة (عليّ) في منزلهم، وسهروا جميعًا يتسامرون فرحين بسلامة

(مريم)، وعودتها للبيت، وأخذت تروي لهم عن (حنين)، وكيف أنها أحبتها، وتشعر بأنها تعرفها منذ زمن، وتطلب من والدتها أن تدعوها لتناول الغداء معهم غدًا، فهذا أقل ما تستطيع أن تقدمه لها.

وعلى الجانب الآخر يستشري طيف (حنين) في قلب (علي)،

ويعزم أن يتحدث مع والدته في أنه يريد أن يتزوجها، فقد بلغ (علي) في عمله مكانة كبيرة، ولديه من الإمكانيات ما يؤهله لذلك.

ولكنه قد عزم على فعل ذك في اليوم التالي، لكن تلك الليلة لم تمر عليه كأي ليلة، فقد طالت ساعاتها ودقائقها ولحظاتها أيضًا، بللت الدموع وجه (عليّ) كثيراً، فقد كان يناجي طيف (حنين) رفيقة الطفولة قائلًا:

ـ "لا أتمنى أن أرتبط بها إلا أنها تشبهك، وتحمل حروف اسمك، لعلنا نتلاقى في الجنة يومًا.. فلتنتظريني"

يشرق الصباح، ويتناول (عليّ) الفطور مع إخوته، ويستأذن والدته في أنه يريد محادثتها في أمر هام. تمسك (ليلى) بكوب الشاي الساخن، وتصطحب (عليّ) إلى غرفة المكتب، وهناك يبدأ (عليّ) حديثه بمقدمه طويلة، وينهيها بأنه يود الارتباط بـ(حنين).

تثور الأم، وتنظر لـ(عليّ) بنظرة حادة قائلة:

ـ "انس الأمر.. انس الأمر يا (علي).. انسه.. ولتغلق ذلك الموضوع..."

ترحل الأم من الغرفة تاركة (عليّ)، وقد لمعت عيناه، وأصابه الذهول، وانتفض قلبه، لم يكن ينتظر تلك الثورة، بل ولم يكن يتوقع يومًا، أو يخطر بباله حينًا أن تقابل أمه ذلك الطلب المشروع بالرفض، وبكل هذه الثورة من عدم القبول غير المبرر.

لم يكن (علي) ذلك الشاب الذي يرفع صوته في وجه أمه، أو يثور عليها، بل تمالك نفسه، وخرج مسرعًا هائمًا على وجهه، لا يدري أيبكي حاله أم ماذا عساه أن يفعل!؟

تؤلمه الحياة؛ فها هي (حنين) قد ضاعت مرة أخرى، ويخاطب نفسه في أسى:

- "ألم أفقد (حنين) رفيقة الطفولة وللأبد، وظللت أحيا بطيفها في داخلي!؟ وما إن وجدت من تشبهها في الحياة ألقى الحواجز والعقبات، وكل ما يحول بيني وبينها.. يا الله!... ما لهذا القدر يعاقبني دائمًا!؟"

هدأ (علي) من روعه، لكنه لم يعد (عليّ) بابتسامته ومرحه، وإقباله على الحياة.

لقد كُسر بداخله الكثير، وأصبح شاردًا حزينًا طوال الفترة التي تلت حديثه مع والدته.

لم يكن أحد في المنزل يعرف أو يدري شيئًا عن هذا الموضوع، لكن (بلال) صديق (علي) الذي لم يكن يعرف هو الآخر شيئًا كان مهمومًا حزينًا، لا يدري ما الذي أصاب صديق عمره، وتوأم روحه (عليّ)، لقد ألح عليه، لكنه لم ينطق بشيء سوى:

- "أنا بخير.. لا تشغل بالك"

وفي تلك الليلة العاصفة المؤلمة، والتي كان المطر بها يملأ شوارع المدينة، استقل (علي) السيارة والتقى (بلال).

لم ير (بلال) (عليّ) بهذه الحالة أبدًا، فقد كان يبكي بين يديه كالطفل، روى له كل شيء.. كل شيء.. ودموعه تخبر عن الأكثر والأكثر.

هدأ (بلال) من روع (علي)، وعاتبه قائلًا:

- "لماذا لم تحاول مرة أخرى مع والدتك!؟ أو تحاول أن تطلب منها أن تشرح لك أسباب رفضها لذلك الموضوع؟"

أجابه (عليّ):

ـ "يا (بلال) أنت تعي جيدًا معزة والدتي، وحبها في قلبي. لم أعتد يومًا أن أعارضها، أو أن أطلب منها أن تشرح موقفًا تؤمن به"

بادره (بلال):

ـ "هذه حياتك يا (عليّ)، ولابد أن تحارب من أجلها، وقد يكون اعتراض والدتك على أشياء بسيطة يمكن تداركها"

يهدأ (عليّ)، ويطمئن قليلًا، وفي اليوم التالي يقرر (بلال) أن يذهب إلى والدة (علي)، ويحدثها. وفي

هذه الأثناء كانت (مريم) تمر بجوار الغرفة (غرفة الضيوف)، استمعت قدرًا إلى الحديث.

وفي العشاء حينما كانوا يتبادلون الحديث تجرأت (مريم) قائلة:

ـ "يا أمي.. أريد أن أرى عرس (علي)، وأفرح بأبنائه، وأستمع إلى كلمة (عمتي) منهم... ألا تحلمين بذلك اليوم الذي تصيرين فيه جدة، ولك أحفاد يملؤون عليك الحياة!؟ أم أنك يا (ليلتي) تظنين نفسك لم تكبري بعد!؟ وما المانع في هذا!!؟ فهناك جدات فائقات الجمال في ريعان شبابهن"

وأخذت تضحك هي ووالدتها كثيرًا.. وابتسمت لها قائلة:

ـ "ربِّ بارك لـ(علي)، فهو قطعة من قلبي، وهو روحي في هذه الدنيا"

وفي هذه اللحظة تشجعت (مريم) قائلة:

ـ "يا أمي! ولماذا تظل تلك أحلامًا، وحديث يفتقر إلى التنفيذ!؟ فلنبحث لـ(عليّ) عن عروس، ولتتركي لي تلك المهمة، وسأجهز لك قائمة بجميلات الحي، كي تختاري منهن يا أحلى (ليلى)"

ثم ابتسمت قائلة:

"لكن يا أماه لدي عروس مناسبة، انفتح لها قلبي وقلوبنا جميعًا ما رأيك؟"

تساءلت (ليلى)بعجب:

ـ "من هي؟"

بادرتها (مريم) قائلة:

"(حنين).. تلك الطبيبة التي عالجتني، فيا أمي قد تعاملنا معها، وشهدنا لها بحسن الخلق وكل جميل، ولم نجد منها غير كل خير"

يتغير وجه (ليلى)، وتحاول تغيير الموضوع، وتصر (مريم) أن تستمع إلى رد الأم على اقتراحها، لكنها تواجهها بما لا تتوقع؛ حيث تحسم الأمر بدون إبداء أسباب، وبدون فتح أي مجال أو فرصة للنقاش مرة أخرى.

تمر الأيام ثقيلة على ذلك البيت الذي فارقته البسمة، وتلك الروح الحنونة، والنسمات العطرة قد غادرته أيضًا، أصبحوا جميعًا يعيشون كالغرباء، لا أحد يتحدث مع أحد، ولا أحد يهتم لأمر أحد، حتى اجتماعهم أصبح خاويًا، وخاليًا من أي روح.

وننتقل إلى بيت (بلال)، حيث طلبت والدته منه أن يتزوج بابنة إحدى صديقاتها، ويجد (بلال) نفسه تلقائيًا يخبر أمه بأن لديه عروس يريد أن يتزوجها، ويحلم بأن تكون له، فتبادره أمه بعجب وذهول:

ـ "من تلك التي أوقعت قلبك يا بني؟"

فيخبرها أنها (مريم) أخت (علي).

في البداية تبدو الدهشة على ملامحها، لكنها تتدارك نفسها

مثنية على أهل (مريم) قائلة:
"كيف لم أفكر قبل ذلك في (مريم)!؟"
يتهلل وجه (بلال)، ويقوم مسرعًا مخبرًا أمه أنه سيتحدث إلى (علي).
وحينها رأت أم (بلال) وجه ابنها المبتسم وعينيه المتلألئتين، حينها فقط ارتسمت على ملامحها البسمة، فهي لا يهمها سوى سعادته.
وفي اليوم التالي استيقظ (بلال) مبكرًا على غير عادته، وارتدى أجمل ثيابه، وتعطر بأجمل العطور.
اتصل بـ(علي)، وأخبره أنه يريد مقابلته في أمر هام، وفي الموعد المحدد وصل (بلال) إلى منزل (علي)، وانتظره في غربة الضيوف، وحينها جاءه (علي) مرحبًا.
كان (بلال) هادئًا وصامتًا على غير عادته، بادره (علي) بالحديث:
ـ "قلت لي أن أمرًا هامًا تريد أن تحادثني فيه.. لعله خير يا (بلال)!"
فتلعثم (بلال) قائلًا:
"صديق عمري، ورفيق حياتي.. أنا حقًا لا أجيد الكلام الكثير، والمقدمات الطويلة.. أنا أريد أن أطلب يد كريمتك (مريم)"
وكعادة جميع من نتحدث عنه، يصاب (علي) بالذهول، ويتدارك نفسه، ويحاول أن يبدو ثابتًا، صمت بضع لحظات، ثم بادره قائلًا:

ـ "بالطبع لن أجد لأختي من هو أفضل منك، صديق حياتي، وتوأم روحي، لكنك تعلم جيدًا يا (بلال) أن والدتي هي صاحبة الرأي الأول والأخير في ذلك الأمر"

ابتسم (بلال) قائلًا:

ـ "كما تشاء يا صديقي، خذوا وقتكم كما تشاؤون، وأنا في انتظاركم"

استأذن (بلال)، وقام بمرافقته (علي) حتى الخارج، وودّعه.

عاد (علي) إلى أمه، وحدثها بما قاله (بلال)، وكانت (مريم) و(ريم) موجودتان أيضًا.

بادرت الأم (ليلى) قائلة إن (مريم) لا تزال تدرس.. إضافة إلى أن (بلال) سينتقل يومًا ما هو وعائلته إلى بلادهم، وهي لا تريد ابنتها أن تبتعد عنها. ولكن هذه المرة خرجت (مريم) من هدوئها المعتاد، وبادرت والدتها بالكثير والكثير مما لم يتوقع الجميع أن تتفوه به (مريم) يومًا.

7رمضان 1435 هـ

2014/7/5م

(5)

ثورة الكلمات

خرجت (مريم) من هدوئها المعتاد قائلة:

- "لكن (بلال) يا أمي كما عهدناه، شاب طموح، حسن الخلق، كما اعتاد أن يقف بجوار (علي)، وعهدناه بالشهامة والرجولة.. ماذا عساك تنتظرين!؟ نحن في بلد ليس ببلدنا، وموطن ليس موطننا.. نعم يا أماه.. نحن في أرض منحتنا جنسيتها هبة منها وفضل.. لكننا لا ننتمي إلا لموطننا وبلادنا.. و(بلال) ليس بغريب عنا... أماه! أنا أرى أن (بلال) هو الفارس الذي لطالما حلمت أن أرتبط بمثله.. عذراً يا أمي.. أوضحي وجهة نظرك لي، فأنا لم أعد طفلة، هكذا ربيتني، وهكذا تعلمت على يديك، وأعدك أن أحترم رأيك"

ذهلت الأم (ليلى)، وحسمت الموضوع كالعادة بالرفض، لم تصمت (مريم) كـ(علي)، بل خرجت عن شعورها، وسط ذهول إخوتها، وأولهم (علي) ووالدتها (ليلى).

صاحت (مريم):

- "يا أمي ماذا بك!!؟ لماذا تكرهين سعادتنا اليوم وأنتِ من أفنيتِ عمرك من أجلنا!؟ ألم يكفك الوجع الذي ترينه في عيون (علي)!؟ أما ترين شروده وحزنه، وعزلته التي أصبحت تطغى عليه!؟ لماذا؟؟ لماذا؟؟ لماذا يا أمـــاه؟؟ لماذا تحطمين أحلامنا!؟ لماذا!؟ لماذا!؟ أطلبنا شيئًا غير مشروع؟؟ أفعل (علي) شيئًا يستحق منك كل هذا!؟ أجيبيني يا أمي! وضحّي لي! أنا أختنق.. فهذا البيت الذي تحملت ما لا تطيقه الجبال حتى تملئيه دفئًا وحبًا ينهار أمام عيونك الآن.. الآن.. فلقد رفضت حتى بدون

إبداء أسباب"

قوبلت ثورة (مريم) بصمت مهيب للأم (ليلى)، وانصرافها إلى غرفتها، وإغلاق الباب، واستلقت على الكرسي المفضل لديها.

لتتذكر الكثير والكثير من الكلمات والحروف تتوه (ليلى) بين طياتها... نعم تتوه بين ممرات الذكريات، متعبة هي من الحنين، موجوعة هي من السنين، تراودها نفسها ما بين صمت مرير، ووجع عميق.. لقد كبر الصغار.. هم لم يعودوا مثل ما كانوا أطفالًا.. تخاطب نفسها بأسى:

- "آه يا حبات قلبي.. لو تعلمون حقًّا كم أحبكم! كيف ستتفهمون يا فلذات كبدي ما بي!؟ آه! آه! آه! آه! ليتك يا (إبراهيم) معي الآن! كم أفتقدك! كم أفتقدك! ولوهلة ظننت نفسي قوية، ظننت أني اعتدت الفقد، وتعودت على الفراق، ظننت أني أستطيع أن أصل بأبنائي لبر الأمان، وأن أقود السفينة (سفينة الحياة).. لكنني أعترف بأنني أضعف بكثير مما كنت أظن"

تظل الآهات والأنات تموج في ليلها، وقلبها يكاد ينفطر، ولكنها تتماسك، وتكتم دموعها.

استندت برأسها، وتمددت على الأريكة، ورجعت بذاكرتها إلى الوراء.. حيث البيت الواسع و.... و..... و..... و......

رمضان 1435 هـ

2014/7/6م

(6)

الذكريات لا تموت

في ذلك البيت الواسع نمت (ليلى)، تلك الفتاة الرقيقة المدللة.. ولدت لأب له مكانته في ذلك الحي الفلسطيني العريق، حيث كان من أثرياء الحي ومن مثقفيه في نفس الوقت.

كانت (ليلى) كالفراشة المدللة التي يفوح عبيرها في ذلك البيت أو ذلك القصر.. لم يكن لها سوى أخ واحد يكبرها بعامين.

يتوافد الخطاب على والد (ليلى) الحاج (عليّ)، كي يفوزوا بتلك الجوهرة، وذلك النسب العظيم، لكن

(ليلى) ترفضهم جميعًا.

يحتار والدها (علي)، لكنه كان يقف على رأيها، ولا يجبرها على ما تكره، فهكذا رباها دائمًا.

كانت (ليلى) بثقافتها وحسن رأيها تريد رجلًا بمعنى كلمة الرجولة، حاملًا لمستقبله وأهله.

في هذه الأثناء يشرق (إبراهيم) ذلك الشاب الواعد المتفوق حسن السيرة، وحسن الخلق والخلقة بشهادة كل من يعرفه، رغم قلة إمكانياته المادية بالنسبة لعائلة (ليلى) المعروفة بثرائها الذي تنغمس فيه.

لم يرَ (إبراهيم) (ليلى) في حياته، لكنه سمع عنها كثيراً من أخته (فاطمة) التي كانت ترافق (ليلى) حيث تجمعهما صداقة قوية، وكثير من الصفات المشتركة.

كانت صفات (ليلى) و(فاطمة) محط أنظار الجميع.

لم تكن (ليلى) فتاة تقليدية، بل كانت فتاة من طراز خاص.

لم يكن (إبراهيم) وحده هو الهائم، بل كانت (ليلى) هي الأخرى منبهرة بذلك الشاب الذي تسمع عن شهامته ورجولته، ومواقفه الرائعة.

لقد كانت شخصيته تلك التي لطالما حلمت بها (ليلى).

في البداية عارض والدها بشدة، لكنه استمع في النهاية إلى ابنته الحكيمة العاقلة الأديبة المقربة إلى قلب أبيها، وقد نجحت (ليلى) في إقناع والدها بوجهة نظرها ورأيها.

قد أحب الحاج (علي) يومًا بعد يوم (إبراهيم).. تمت الخطبة، وبعدها بقليل تم الزفاف.

عاشت (ليلى) أسعد لحظات حياتها؛ فقد كان (إبراهيم) فارسًا بمعنى الكلمة، رجلًا شجاعًا يعتمد عليه حقًا.

ولقد سعد والدها كثيراَ بـ(إبراهيم)، ليس فقط بل وطلب منه أن يساعده في تجارته الواسعة، فقد كبر في السن، وهو يريد من يثق به، ويحمل معه هذا الهم الثقيل، وخصوصًا أن ابنه الوحيد (حسن) قد سافر ليدرس في إحدى البلاد الأجنبية.

تمر الأيام، ويصبح (إبراهيم) ذراع الحاج (علي)، ومساعده الأول. نمت التجارة وازدهرت أكثر وأكثر.

كانت الأيام جميلة تمر بأجمل ما يكون، كأن عبير الزهور في الأجواء.

حقًا.. كأن رائحة الخير تنبعث في كل مكان، شيء ما يحفز الجميع، ويمثل أكبر دافع، بل وأعظم ملهم، ألا وهو الحب.

ذلك الحب الذي توطن قلوبهم جميعًا.. حب (علي) لأبنائه ولـ(إبراهيم)، وحب (ليلى) و(إبراهيم)، وحبهم جميعًا، ونقاء قلوبهم.
(ليلى) تلك التي أصبحت متيمة بـ(إبراهيم).. تنتظره كل يوم حتى ترتوي من عيونه، وتنهل من كلماته التي تبعث فيها كل جميل.

هي كانت دائمًا تروي لـ(فاطمة) أنها تشعر أنها الأكثر حظًا بـ(إبراهيم)، وتقول لها إنه أجمل أقدارها.

واكتملت الفرحة بحمل (ليلى) بين أحشائها مولودًا، ومن الفرحة كاد قلبها أن يتوقف، انتظرت (إبراهيم)، ثم أغمضت عينيه مداعبة قائلة:

ـ "يا حبيب القلب! هيا.. لتعد نفسك.. فهناك ضيف عزيز علينا"

ابتسم (إبراهيم) قائلًا:

ـ "من هذا الذي نال رضا أميرتي؟ كفي عن هذه الفرحة، فإنني سأغار، فلتخبريني من هذا الضيف!"

أجابته وهي ترى اللهفة في عينيه:

ـ "إنه قطعة منك يا منى روحي"

لم يتمالك (إبراهيم) نفسه... جميل أن تحب روحًا، وتعشقها بكل تفاصيلها، لكن لا يوجد في الكون أجمل من أن يكون هناك روح أخرى تجمعك بمن تحب، فهي مزيج روحيكما.

وبادرها قائلًا:

ـ "أحقًا يا (ليلتي)!؟ سيصير حلمنا حقيقة!؟"

قبّل جبينها، واتفقا على أن يكون اسم المولود السعيد (علي)... (علي) اسم والدها الحبيب.

وحينما علم الحاج (علي) ببوادر قدوم صغيره وحفيده للحياة كافأ الجميع، وكل من يعملون معه بالتجارة، ووزع الحلوى واللحوم على الحي بأكمله.

تهللت (فاطمة) هي الأخرى، وكانت سعيدة جدًا، فقد صارت (ليلى) سعيدة، وما هي إلا أوقات قصيرة وتصبح أمًا.

أسرعت (فاطمة) إلى توأم روحها وصديقتها الحميمة (ليلى)، والتي قاسمتها كل الحياة.

وكان وجهها منيراً كالبدر في ليلة تمامه، وعيناها تتلألأ كالمحار، بل قل كاللآلئ، لكن (ليلى) قرأت في عيونها أن هناك شيئًا قد أسعدها كثيراً، فقالت لها بابتسامة هادئة:

ـ "ماذا حدث يا صديقة الطفولة؟ هلّا أخبرتني، فإنني لا أستطيع أن أنتظر.. وأنت لا تستطيعين أن تداري، فعيونك تفضح ما في قلبك.. وإن استطعت أن تداري ما في قلبك عن

العالم أجمع، فلن تفلحي أن تداري عني، فأنا أقرؤك من عيونك"

ابتسمت (فاطمة) قائلة:

ـ "يا (ليلتي) لقد تقدم لخطبتي (عابد) صديق أخي (إبراهيم) المقرب، إنه حسن الخلق، وطيب القلب جدًا.. و(إبراهيم) يعده فردًا من عائلتنا.. ولقد فاتحني (إبراهيم)، وأبدى موافقته"

تهللت (ليلى) قائلة:

ـ "يبدو أن (عليّ) طفلي الصغير قد أتى بالفرحة، لينثر عبيرها بيننا جميعًا"

تمت خطبة (فاطمة)، ووضعت (ليلى) مولودها قبل زفاف (فاطمة) بشهر واحد.

توالت الأفراح في ذلك الحي، والضحكات في ذلك اليوم.

أشرقت الشمس صباحًا، وكان الجو دافئًا قليلًا. كان يومًا مميزًا.

سيزور الدنيا هذا اليوم قلب أبيض، وسيأتي إلى الحياة، ستتواجد روح طاهرة عفيفة ذلك اليوم.

عانت (ليلى) من آلام الولادة، وكان الجميع ينتظر بلهفة قدوم الحفيد المنتظر.

كانت مشاعر (إبراهيم) مزيجًا بين الفرحة والقلق،

لكنه سرعان ما سمع بكاءه، نسي كل شيء، وسجد شكراً لله.. لقد أنار الدنيا (علي).

أسرع إلى (ليلى)، وقبّل رأسها، واحتضنها بعيونه، وأمسك بـ(علي) بين يديه في لحظة كانت فارقة في

حياته.. أن يحمل بين يديه ولدهما.. هو و(ليلى) كان حلمًا يرافقه صعب المنال، لكنه الآن صار حقيقة يلمسها.

تنفس (عليّ) هواء الحياة، وصار فردًا في ذلك الكون الواسع.

مرت السنوات تلو السنوات، وكبر (عليّ) قليلًا، وأصبح طفلًا كالقمر... ظله خفيف على قلوب الجميع.

وفي هذه الأثناء حملت (فاطمة)، وولدت بنتًا كفقلة القمر سمتها (حنين).. كبرت (حنين)، وارتبطت أكثر وأكثر بـ(علي).. كانا يلعبان معًا، يمرحان معًا.. قلبهما الذي يحاكي بياضه بياض الثلج.

تمر الأيام، وتأتي إلى الدنيا (مريم) ابنة (ليلى) و(إبراهيم) تلك التي تشبه أمها كثيراً، وبعدها تأتي

(ريم)، وتختم العائلة بـ(عمر).

كما ترزق (فاطمة) بـ(أحمد)، ليصبح لـ(حنين) أخًا تشاغبه، ويشاغبها.

كانت الفرحة تموج في طرقاتهم، والسعادة تطفو على حياتهم.

ورغم انشغال (ليلى) بأطفالها إلا أن حبها لـ(إبراهيم) كان يكبر يومًا بعد يوم.

هو لم يعد حبيبها وزوجها فقط، بل أصبح أيضًا والدًا لأطفالها، وفارسها، ورجلًا لطالما حلمت بفارس مثله فكافأها القدر به.

رغم أن (إبراهيم) كان رجلًا بما تعنيه كلمة الرجولة، بطلًا قويًا، له كلمته ورأيه في كل الحياة.

يحترمه الجميع، ويقفون على رأيه، لكنه كان رفيقًا بها، لينًا معها، يكتب لها الشعر، ودائمًا يصرح بهيامه بها، وأنه لم تزده الأيام إلا عشقًا... ودائمًا يقول لها:

ـ "الآن يا (ليلتي).. لا أعجب كيف كان يحيا العشاق"

وها هو (عليّ) يكبر أمام عيونهما، فيرون فيه أحلامهم، وفرحهم، وحبهم يكبر يومًا بعد يوم.

وها هي (حنين) هي الأخرى تبرع في الرسم، فقد كانت هوايتها المفضلة.. رسمت لوحة فنية بأناملها الصغيرة.

وحينما حان وقت مدارسة القرآن مع الشيخ (جعفر) تسارعت (حنين) كي تصطحب (علي) و(حسن)، وإخوة (علي) للذهاب إلى مدارسة القرآن، وفي طريق العودة تهدي (علي) اللوحة التي رسمتها خصيصا له.

10 شوال 1435 هـ

2014/8/6 م

(7)

طعنة في قلب الوطن

تهدي (حنين) لـ(عليّ) تلك اللوحة التي رسمتها، سهرت على رسمها في فرحة وبراءة، حيث لم تكن تلك اللوحة سوى (مطر) كثير ينزل من السماء، وقصر زينته بجميع الألوان في تناسق مميز.. كتبت عليه قصر (علي) و(حنين).

كانت عيناها متلألئة بسحرها الفلسطيني تأسران القلوب، تخاطب (عليّ):

ـ "يا (علي)! هذا قصرنا.. ما رأيك به؟"

يبتسم (عليّ)، ويقول لها:

ـ "سأبني لك قصراَ أجمل بكثير من هذا يا (حنين)" يعودان معًا إلى البيت، حيث كانا يسكنان بجوار بعضهما في ذلك الحي الذي شهد على أجمل الذكريات.

تجتمع العائلة كلها في زفاف أحد أقربائهم شقيق (عابد).

تناثرت البهجة في كلِ الأرجاء.. وانتشرت حولهم في كل مكان، يتواجد الحاج (علي)، و(إبراهيم) و(عابد)، وأقرباؤهم في سعادة بالغة. يتعلق (عليّ) بعفوية برقبة جده (علي)، ويهمس في أذنه:

ـ "يا جدي! أريد أن أطلب منك شيئًا، أريد أن تقيم لي حفلًا مثل هذا، أريد أن أرتدي مثل عمي (صالح)"

يضحك جده، ويهتز:

- "يا عليّ! أيمّن الله علي، ويمد في عمري حتى أزوجك، وأرى عرسك!؟ يا لها من أمنية عزيزة على قلبي يا ولدي"

حينها يتضاحك (عليّ) ضحكة طفولية، ويبادره:

- "أريد أن تكون العروسُ (حنين)"

يتضاحك الجميع، ويخاطب الحاج (عليّ) (إبراهيم) قائلًا:

- "من شابه أباه فما ظلم"

ويعلّق قائلًا لـ(عابد):

- "هيا يا (عابد).. فلتجهز العروس، فقد قرر العريس" -يقصد (عليّ) الصغير-

تمر الأيام.... والشهور بكل ما فيها... لم يكن يعلم ما تخبئه الأقدار، لم يكن يدري أحد أين سيكون المصير؟ وإلى أين ستأخذه الحياة؟

تتوالي الأحداث في فلسطين.. وتنشأ مشكلة التهجير، واستيلاء الصهاينة على أراضي الفلسطينيين، وطردهم منها.. يغتصبون الأرض الحبيبة، كما أنهم يغتصبون الذكريات من الأحبة، وتقف الأمة تشجب وتستنكر كالعادة.. وها هي الحبيبة فلسطين في نزعها الأخير.

لم يكن الحاج (عليّ)، ولا (إبراهيم)، سوى رجالًا أحبوا أوطانهم، وعشقوها، بل وكانوا دائمًا على استعداد أن يضحّوا بالروح

والنفس، وبكل ما يملكون إذا دعاهم الداعي، وهنا يتزعمون حركة مقاومة التهجير ويبدؤون في التوعية.. لن نترك بيوتنا.. لن نترك أرضنا.. لن نبيع.. ولن نصالح.. ولن.... ولن....

لم تكن الأيام تسير بيسر وسهولة كما كانت، بل أصبح لها وجه آخر.. أصبح للوجع معنى لم يعهدوه من قبل.. أصبح للقهر معنى لم يعرفوه إلا الآن.

جمع الحاج (عليّ) أسرته بأكملها، وعلى مائدة الغذاء حدثّهم حديثًا لم يسمعوه من قبل.

أظنه سيظلون يتذكرونه ما بقي لهم من عمر، وما تبقى من لحظاتهم.

كان حديثه عن الوطن، والحضن الدافئ، والتراب الغالي يلمس القلوب، ويتسلل إلى الروح.

كان حديثه عن أن الموت في حضن الوطن، وعلى ترابه أسمى الأماني، وأعاد إلى الذاكرة تاريخنا مع اليهود، وأظن أنه أيقظ همتهم، وعزيمتهم، وزرع في قلوبهم جميعًا معنى حب الوطن.

لكنهم جميعًا أيقنوا أن القادم سيكون أصعب بكثير.. أيقنوا أن عليهم أن يكونوا أقوى وأقوى، فقد تأتي المصاعب، وما لا يستطيعون تحمله أبدًا.

وأصبح الجميع يعي جيدًا أن الحاج (عليّ) سيقاوم اليهود، وأنه لن يبيع مهما كان.

ظلت تلك المقاومة فترة طويلة، وسط فشل كل المحاولات في تغير رأي الحاج (عليّ) أو زعزعته عن فكرته، وعن تمسكه بأرضه وبيته، وتأثيره على الحي بأكمله.

لم يكن يعلم من في ذلك الحي الآمن المملوء بالدفء ما ينتظره، وماذا يفعل بهم جميعًا، بل بفلسطين أجمعها... وماذا سيصيب العرب؟ وكيف غزا الصهاينة الأرض، وكيف قاموا بتهجير أصحاب الأرض.

لقد ابتدؤوا زمانًا آخر لم يعهدوه أبدًا.. زمن التغريبة.. زمن التهجير والفراق.. فراق الأحبة، فراق الذكريات.. وأي نوع من الألم يحاكي ذلك الألم الذي توطن في قلب الوطن!؟

يقف (إبراهيم) فارسًا شجاعًا كعادته، يقسم ألا يترك بيته، ويناضل من أجل القضية، لكنها الأقدار... يموت المناضل.... يموت الحبيب برصاص صهيوني غادر.

يموت (إبراهيم)، لكنه لم يفرط في أرضه، ولم يبع وطنيته، ولم يتخلَ عن دينه ومبادئه مقابل حفنه من المال، أو أمان زائف.

وها هو الحاج (عليّ) يموت على إثر تدهور صحته، وحزنه على ما آل عليه حال الوطن، وخصوصًا موت (إبراهيم).

استقبلت (ليلى) موت الاحبة بدموع الفراق، وصراخ القلب، فقد فقدت والدها الحبيب، وزوجها وحبيب عمرها ووالد أطفالها في آن واحد.

احتضنت (ليلى) أبناءها والدموع تتساقط من عيونها.. لم تكن دموع عيونها، بل كانت دموع قلبها.. تلك التي عاشت حياتها مدللة، وأحاطها الحب من كل مكان.. ها هي تنظر إلى المستقبل المجهول الذي لا تدري بأي قلب ستواجهه! وبأي روح ستحياه!

احتضنت (ليلى) أبناءها أكثر وأكثر.. هي تخشى عليهم رصاص الغدر، ولوعة الحرمان.

22 شوال 1435 هـ

2014/8/18 م

(8)

اربط على جرحك

ها هي (ليلى) تتماسك، تخفي ما تبقى لها من الدموع، تحاول أن تكون على قدر المسؤولية التي ألقت على عاتقها.

هم الآن مهجرون قد غادروا البيت الدافئ، وكنز الذكريات، لم يبيعوا الوطن، بل فقدوه عنوة وظلمًا.

عانت (ليلى) أقسى أنواع الألم، وباتت مسؤولة عن أبنائها بعد فقدها لكل سند، ولكل رفيق.

الشيء الوحيد المؤنس لها هو وجود (فاطمة) رفيقة العمر بجوارها.. وفي تلك المخيمات التي أقيمت من أجل اللاجئين الفلسطينيين تعيش (ليلى) بنت العز، وسليلة القصور.. آه من الوجع! آه من القهر!

كانت (ليلى) تتمنى أن تموت في بيتها، ووسط أشيائها وذكرياتها، لكنها تنظر في عيون أطفالها فلا

تستطيع أن تفعل شيئًا.. أي شيء.

ذات مساء لم يرحم الصهاينة أوجاعهم، ولم يكن لديهم درب واحد من دروب الإنسانية، فقد قصفوا ذلك المخيم، كانوا نائمين لحظتها. وها هي (ليلى) تصحو على أصوات الصراخ، والبكاء الذي أصبح هو الحياة الجديد... كاد قلبها أن يتوقف.

كانت تسير كالمجنونة حتى تلاقت مع (عليّ) وأبنائها وسط الدموع والصراخ.. احتضنتهم بشدة، وها هي (ليلى) تبحث عن (فاطمة) صديقة عمرها، وعن (عابد) زوجها و(حنين)

و(أحمد)، حيث كانوا هم الرفقاء الباقين بعد فقد الأحبة.. كانوا لها بلسماً، لكن هيهات أن تجدهم.. وتنادي: ـ "قد تشقق القلب أحبتي!! أين أنتِ يا (فاطمة)!؟ يا (حنين)!!"

لا أحد يجيب.. قضت الليلة بأكملها، بل واليوم التالي تبحث عنهم، تسأل كل من يقابلها عن صفتهم، ولكن لا جدوى... تسمع أنهم قد قتلوا، لكنها لا تستطيع أن تقبل رأسهم قبلة الوداع.

لا تستطيع أن تقبل جبينهم، وتبكي بحرقة، وتمد يدها إلى السماء، فهناك المدد والطمأنينة، وتدعو الله أن يقوي قلبها، وأن تتحمل، وتكمل الطريق، وتدعو الله أن يرعى أولادها، وتبكي، وتبكي.

كانت لحظات من أقسى اللحظات التي ستظل في ذاكرتها طيلة حياتها.

هدأت (ليلى) من نفسها، وتذكرت أخاها (حسن)، حيث سافر (حسن) منذ زمن إلى فرنسا، لكي يدرس، واستقر هناك هو وعائلته، وحينها صرخت: ـ "(حسن)!! (حسن)!! (حسن)!!"

كان عليها أن تحاول الوصول إلى أخيها، فلم يعد لها في هذه البلاد ما تبكي عليه.. رحل الأحبة، أصبحت وحيدة، هل تخشى على فلذات كبدها الذين لن تتحمل نعومة أظافرهم أكثر من ذلك!؟

لكنها فقدت كل وسائل الاتصال، لم تيأس.. حاولت.. وحاولت.. وعانت كثيراً.. ومرت عليها الليالي الطوال، عانت الحرمان، والخوف، والقهر، وكل أنواع الوجع، وأخيراً تهتدي إلى عنوانه الذي لمحته مرة على إحدى الخطابات التي أرسلها لهم ليخبرهم عن عمله الجديد، وعن قدوم مولوده الأول، وقد كتب فيها العنوان.

تبعث إليه خطاباً، وتنتظر في أسى، ويعتصرها الألم، فهذا آخر أمل لديها، وتموج هي بين الألم والجوع، والخوف والاشتياق لأحبة سكنوا التراب.

الوحدة تكاد تقتلها، كلها مشاعر موجعة، وخاصة إذا كانت متعلقة بفقد الوطن، والكرامة، والعزة.

فالأرض التي ولدنا بها، وتنفسنا هواءها، وعشنا بين أحيائها، ودروبها، وأشجارها، لا يعوضها شيء آخر.

مشاعر حزينة لم تعتد (ليلى) عليها يوماً، بل كانت مستجدة عليها.

يرسل (حسن) لـ(ليلى) خطاباً يحتوي على عنوان مفصل لسكنه، كما يحتوي أيضًا على بعض المال، ودعوة للسفر بها عدد أفراد أسرة (ليلى).

تبكي (ليلى) كثيراً، فقد تخالطت عليها المشاعر من فرحتها بأن الله استجاب دعاءها، وها هي الآن سترى أخاها، وستبعد أحبتها عن معنى الفقد مرة أخرى.

لكنها تخاطب نفسها:

- "كيف لي أن أترك وطني لهؤلاء المحتلين المغتصبين!؟ هل ستنتهي القضية هكذا!؟ هل سأترك ثأرك يا أبي!؟ وثأرك يا (إبراهيم)!؟ وثأرك يا (فاطمة)!؟ آه! آه! آه!"

لكنها تنظر إلى أطفالها الذين لم يتجاوز أكبرهم الثانية عشر من عمره، وعمر الصغير لم يتجاوز السنتين.

تمسك بأيديهم قائلة:

- "سنرحل الآن للعيش مع خالكم (حسن)، لكن حتمًا سنعود إلى أرضنا يومًا"

تلملم (ليلى) نفسها وروحها، وتتمالك، وتقرر السفر، وكان (عليّ) يبكي، ويخاطب والدته:

- "أمي! هل سأترك (حنين)!؟ ألن تأتي معنا!؟ ألن أراها مرة أخرى!؟"

تجيبه بأسى:

- "يا (عليّ)! (حنين) في السماء قد قتلها الصهاينة.. لابد أن نرحل الآن"

يجيبها (عليّ):

- "لا يا أمي! لم تمت (حنين).. أرجوك! فلننتظرها!"

تمسك بيده في حنان، وتقبل جبينه، وبهدوء تقول: ـ "هيا يا (عليّ).. لابد أن تصبح من الآن رجلًا قويًا شجاعًا"

يرحل الجميع إلى ذلك المكان الذي قد أرسل لهم (حسن) عنوانه، حتى يتولي من يرشدهم إلى الطريق الصحيح.

تتناثر الذكريات، ويسير الجميع إلى أقدارهم، والأماكن التي كتب الله لهم أن يقضوا ما تبقى من

أعمارهم فيها.. و(ليلى) تتمتم بقول الله تعالى:

ـ "لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا"

22 شوال 1435 هـ

2014/8/18 م

(9)

رحلة إلى مرسيليا

تنجح (ليلى) في أن تصل إلى الدليل الذي بعثه (حسن) إليهم، وينهي معهم إجراءات السفر إلى مرسيليا.. تلك المدينة الفرنسية الساحرة، والتي تعد حالياً من أشهر الموانئ البحرية، كما أنها تتمتع بوجود جالية مسلمة عريقة.

لحظات الفراق الحقيقي لهواء الوطن كانت من أقسى ما يكون، وقلب (ليلى) وروحها يرددان فقط:

"وأي هواء يفلح في أن يكون بديلًا عن هوائك يا وطني!؟"

انتهت إجراءات السفر، وها هم الآن على متن السفينة التي ستبحر إلى مرسيليا.. تقضي (ليلى) الليل بأكمله في النظر إلى أمواج البحر وهي تتراقص في مقطوعة موسيقية متناغمة، وتلك النجوم التي تبارك تلك الرقصة الساحرة، وصباحًا تنظر إلى الشمس، وتتأملها غارقة هي في التفكير، لا تدري ماذا تخبئ لها الأقدار.

تنظر في عيون أطفالها، وتتساءل.. هل ستفلح في أن تكمل الرسالة، وتنشئهم رجالًا ونساء يستطيعون أن يحملوا الرسالة، ويقدروا على مواجهة الحياة!؟ هل ستنجح في أن تزرع فيهم حب الوطن!؟ ويستطيعون استرداده من أيادي المغتصبين!؟

تتنهد (ليلى):

ـ "آه! آه! آه يا (إبراهيم)! كم أشتاقك حقًا! كم أتمنى أن أخبرك أن الأيام من دونك يملؤها الخوف، ويغزوها الحنين"

تفيق (ليلى) من تأملاتها على صوت أحدهم يخبِرها بأن الرحلة قد انتهت، وأنهم سيغادرون في خلال ساعة تقريبًا.

تتجهز (ليلى) وأطفالها، وها هي الآن تطأ قدمها مرسيليا الساحرة، والتي تسحر بجمالها الخلاب عيون المسافرين إليها.

تستقل المواصلات، وها هي تصل إلى ذلك البيت الفاخر، والذي يطل على حديقة كبيرة.. إنه بيت (حسن)، وها هو (حسن) يخرج لاستقبالها، تحتضنه ودموعهما هما الاثنان تنهمر.. يقبل (حسن) أولاد أخته، ويحتضنهم في حنان، ويخبرهم أن يرتاحوا جميعًا. إنه يملك شركة هنا في مرسيليا، وأن لديه من المال ما يكفي لحياة كريمة، ونظر إليها، وربت على كتفها قائلًا:

ـ "هذا حقك، وليس تكرمًا مني، فتلك الثروة هي من مال والدنا"

وأخبرها ألا تقلق أبدًا.

اشتري (حسن) لـ(ليلى) بيتًا أنيقًا بجوار بيته، وجهزه بأفضل الأثاث.. كما أنه استطاع أن يجد لها عملًا مناسبًا، خصوصًا أن (ليلى) كانت على قدر من التعليم والثقافة.

تمر الأيام، وها هو الصغير يكبر، ويصبح الأطفال شبابًا واعدًا.. يكمل كل منهم حياته. وها هي (ليلى) التي قد عاهدت نفسها أن تكون على قدر المسؤولية، وبالفعل صدقت في وعدها.

فها هو (عليّ) يعمل في أكبر الشركات الفرنسية، ولديه مكانة مرموقة في عمله رغم صغر سنه. وها هم باقي أبنائها في مراحل التعليم المختلفة، وعلى قدر كبير من الثقافة والأخلاق.

ياااااااه!! كل هذه الرحلة الطويلة مرت في ذاكرة (ليلى)!؟

تفيق (ليلى) لتجد نفسها على تلك الأريكة.. مازالت جالسة تتحامل على نفسها، وتمسح دموعها المنهمرة على وجنتيها، وها هي تخرج من غرفتها، والصمت والحزن يقودان الموقف.

يصمت الجميع، ويغلقون الحديث في أي شيء؛ فلم يعد أحد يريد أن يتحدث.. يتحاشى الجميع أن تأتي عيونهم أمام أعين بعضهم البعض، فالكل مجروح، والكل مهموم.

تمر الأيام بثقلها، وكل شيء حزين يلف أرجاءها، رغم أن (علي) أخبر (بلال) بموقف والدته، فهو لا يستطيع أن يخفي عليه شيئًا، لكن (بلال) ظل لـ(عليّ) صديقًا وفيًا، بطلًا همامًا، أخًا حبيبًا؛ فهو لم يتركه للحظة، بل كان معه دائمًا.

26 شول 1435 هـ

2014/8/22م

(10)

عودة الروح

يستيقظ (عليّ) باكرًا ليذهب إلى عمله، فلديه اليوم الكثير من المهام التي لابد أن ينجزها.

ومع بداية الصباح يأتي أحد العاملين بخطاب له، ويخبره بأن (بلال) قد تركه إليه أمس، وطلب منه

أن يسلمه إياه اليوم.

يفتح (عليّ) الخطاب مسرعًا، وقلبه يكاد يقف من الخوف؛ فهو لم يعتد من (بلال) أن يكن اتصالهما هكذا.

يخبر (بلال) (عليّ) في خطابه أنه سيسافر إلى سوريا، ليقضي فترة الإجازة بها، حيث عائلته وبيت أبيه هناك.

يخبره أنه لم يستطع أن يودعّه، فهما لم يفترقا منذ بداية معرفتهما ببعضهما.

يوصي (بلال) (علي) نفسه، وبأهله، وبصحته، وبكل أموره.

يعود (علي) للمنزل، وقد شعر بالوحدة بدون (بلال) صديق عمره.

إحساس قاتل؛ فـ(بلال) يملأ حياة (علي) بمعني الكلمة.

(بلال) الذي وجد فيه (عليّ) الأب، والأخ، والصديق، فوجود (بلال) بجانبه خفف عنه الكثير.

بعد شهر تقريبًا يبعث (عليّ) لـ(بلال) خطابًا يسأل فيه عنه، وعن صحته، ويخبره بأن الحياة فارغة بدونه حقًا.

وما هي إلا أسابيع قليلة، ويرسل (بلال) دعوة زفاف أخته (سارة) إليهم، ويتمنى عليه أن يحضر، ويحضر عائلته قائلًا له بأنها مناسبة جميلة، لكي يجددوا نشاطهم، ويستعيدوا بعضًا من علاقتهم ببعضهم البعض، ويؤكد له أنه سيكون سعيدًا بتواجدهم معه في مثل هذا اليوم.

يخبر (عليّ) والدته بهذه الدعوة، ويتوقع هو وعائلته أن ترفض، لكن (ليلى) تفاجئ الجميع بالموافقة، ويتجهز الجميع للسفر لحضور حفل زفاف أخت (بلال)، والفرصة جيدة جدًا، لكي يجدد الجميع نشاطهم، ولكي يفيقوا من حالة الحزن التي سيطرت عليهم الأوقات السابقة.

يصل (عليّ)، وعائلته إلى سوريا، ويستقبلهم (بلال) لكي يوصلهم إلى المنزل، وفي الطريق لم يكف هو و(علي) عن الحديث؛ فقد اشتاق كل منهما للأخر كثيراً.

أخيراً وصل الجميع إلى منزل (بلال) وعائلته، يصعد الجميع إلى البيت، ويتجهز الجميع للدخول، وترحب بهم والدة (بلال) بحرارة، ويتبادل الجميع الترحيب والتهاني، ويجلسون في حديقة المنزل لبعض الوقت، يتناولون بعض الحلوى والعصائر، ثم يطلب منهم (بلال) أن يرتاحوا من السفر، فقد جهز لهم الغرف.

يرتاح الجميع، فقد قدموا من سفر طويل وشاق ومتعب.

ومع اقتراب الشمس من الغروب يتجمع الجميع في المنزل، وتساعد (مريم) و(ريم) (سارة) العروس في التجهيز، كما

تتبادلان الحديث. وها هي والدة (بلال) و(ليلى) تنهمكان في الحديث عن العادات والتقاليد، وذكرياتهم، وأعراسهم، والكل مشغول في التجهيز للعرس.

يطرق الباب، ويقوم (أسامة) بفتحه لتأتي (حنين) ووالدتها... في البداية تدخل (حنين)، فهي صديقة (سارة) المقربة، وتوأم روحها. يصاب الجميع بالذهول حينما تدخل والدة (حنين)، فتهب (ليلى) واقفة، وحينما تتلاقى عيونهما تترك (ليلى) ما في يدها، وتجري نحوها. بينما والدة (حنين) تصرخ:

ـ "(ليلى)!!.... (ليلى)!!..... (ليلى)!! "

وتحتضنها بشدة، وتبكيان بكاء لم يتخيله أحد، الجميع مذهولون جدًا، والصدمة تعلو وجوههم.

كان المشهد دراميًا جدًا، فقد فاق كل مشاهد السينما، وبعد العناق الحار، والدموع المنهمرة، والصراخ، وكل هذه العواطف المتناثرة.

تنظر (ليلى) بشوق إلى (حنين)، وتهمس لـ(فاطمة):

ـ "هذه (حنين)!... (حنين عابد)!"

تحتضنها بشدة، وتقبّل جبينها.

وهنا تدمع عيون (عليّ)، هو لا يصدق نفسه:

ـ "أحقًا عادت (حنين)!؟ أحقًا أراها أمام عيوني مرة أخرى!؟ أحقًا أحببتها مرتين!؟ هذه (حنين) رفيقة الطفولة، وحبيبة

العمر، والحاضرة الغائبة"

لقد كاد قلب (عليّ) أن يتوقف... تمر في ذاكرته كل لحظات الألم والوجع، وكل دقة من قلبة كانت تخبره بأنه هناك روح حبيبته في مكان ما لا تزال حية ترزق، ويهتف من أعماق قلبه:

ـ "الحمد لله!"

وها هي (حنين) لا تصدق هي الأخرى نفسها، ها هو (عليّ) أمام عيونِها، فارس أحلامها، وروحها الضائعة التي ظلت تبحث عنها عمرا من الزمن.

لم تكن تلك اللحظات لحظات عادية، فالجميع تعلوهم الدهشة، واحتضن (بلال) (علي)، وقبّل رأسه. وها هي (ليلى) ترتوي من وطنها برؤية أحبتها.. لم تكن تصدق (ليلى) ما حدث أبدًا.

أخذت (فاطمة) تروي لـ(ليلى) الكثير، والكثير، وتعجبوا جميعًا كيف يجمع الله شملهم وشتاتهم بعد كل هذه السنوات من الفراق.

ولكنهم يحمدون الله على أن لمّ شملهم، وثبّت قلوبهم.

هي الروح تشعر برفقائها حتى وإن كانوا في أقصى الأرض.

حينما نحب حقًا تذوب المسافات والحواجز، تنصهر كل العواقب. قد لا نتحدث، لكن الأرواح لا

تتوقف عن الحلم والحب... آه من الوجع والجراح!

"حان الآن وقت الفرح"

بهذه الحروف هتف (عليّ).

ـ "كفانا عمراً ضاع، وكلنا مشتتون تائهون عن بعضنا البعض... سيصبح العرس عرسين، بل ثلاثة"

يقبّل (علي) رأس والدته وجبينها قائلًا:

ـ "أتسمح لي سيدتي أن أتقدم، وأطلب يد (حنين)!؟"

تبتسم (ليلى)، وتنظر إلى (فاطمة):

ـ "ما رأيك يا أم (حنين)!؟"

تعلو وجوههم الابتسامة.. تقول:

ـ "يا (علي)! هي لك وأنت لها منذ أن كنتما طفلين صغيرين، تلهوان وتلعبان، إن روحيكما شديدة الاقتراب.. أنتما لم تخلقا إلا لبعضكما"

يصفق الجميع، ويطلقون الزغاريد، و(حنين) تعلوها ابتسامة خجولة، وقلبها يتراقص فرحًا، ففارسها أصبح الآن لها... سيتحقق حلم عاشت العمر تبحث عنه.

والدة (بلال) تدخل في حوارهم مخاطبة (ليلى) بابتسامة خجول:

ـ "يا أم (عليّ)! لقد أحببتكم كثيراً، وقد دخلتم قلبي، وكم أتمنى أن تصبح (مريم) لي بنتًا ثالثة! ما رأيك يا أم (عليّ)؟"

تبتسم (ليلى)، وتشير لـ(عليّ) بالموافقة، فيحتضن (عليّ) (بلال) قائلًا:

ـ "موافقة! موافقة!"

وتعلو الزغاريد مرة أخرى.

وها هي (مريم) تقبّل وجنتي (ليلى)، وتحتضنها بحب قائلة:

ـ "شكراً يا (ليلتي)! يا أمي الحبيبة!"

لم تكن (ليلى) متعنتة في رفضها، بل كانت تخشى عليهم أن يتزوجوا من أغراب، وينسوا القضية، ويموت الحلم، ويدفن الثأر.

لقد عاهدت (ليلى) تراب الوطن حينما ودّعته أن تنشئ أبناءها كي يعودوا، ويعيدوا الوطن من مغتصبيه مرة أخرى.

كان هذا حلمها، وأملها، ويقينها الذي تحيا به.

ها هو (عليّ) يسترد روحه الضائعة، وحلمه المفقود مرة أخرى.

لكن سيحمل الجميع في النهاية حلمًا بالعودة يومًا إلى فلسطين، واسترداد الأرض، والوطن الحبيب.

"ويقولون متى هو؟ قل عسى أن يكون قريباً"

تمت

والتقينا

هبة سمير

ليلى وعائلتها، وحنين وبلال، والكثير من الأرواح التي امتزجت في ترنيمة وغنوة عذبة الألحان، يتناغم فيها الماضي والحاضر والمستقبل، الغربة، الحنين، الألم، الاشتياق، الوجع، اللقيا، الفرحة، هي مفردات تناثرت عبر رحلة من الحي العربي الهادئ، عبر الأمواج إلى الميناء الفرنسي الساحر، تخبرنا حقا أن الأحلام قد تغفو لكنها لاتموت، بل تستيقظ من غفوتها لتعطي الحياة بأكملها رونقا وجمالا، وتلون تلك اللوحات بلون زاهر، لنحيا من جديد.



